

الكفل

تقع مدينة الكفل على بعد ٣٠ كم جنوب مدينة الحلة (١٣٠ كلم جنوب بغداد) وسط سهل خصيب أضفى على المدينة جمال المنظر وغزارة الإنتاج الزراعي ، جعلت الرحالة ابن بطوطة يصفها بالقول (أن مدينة الكفل بلدة حسنة بين حدائق النخيل وتسمى "بر ملاحه" ، يجانب نهر الفرات الذي أمدّها بالعصب الرئيس للبقاء والديمومة ، وتتميّز بكونها من المدن القلائل في موقعها وأهميتها التاريخية والحضارية ، وقد اشتق اسمها من النبي ذي الكفل (ع) . أن التركيبة السكانية لهذه المدينة تكوّنت أكثريتها من العرب بالإضافة إلى العبرانيين من الطائفة الموسوية الذين يرجعون بأصولهم لفترة السبي البابلي في القرن السادس ق.م ، وقد تجمّعوا حول مرقد النبي ذو الكفل (ع) وتناوبوا على سدنته مع المسلمين .

موقع الكفل يعتبر من المواقع الأثرية والتراثية المهمة حيث أضفى التداخل بين الديانات أهمية بالغة على المكان وأعطاه امتيازًا خاصًا تعلق بأهتمامات القسم الأكبر من سكان الكرة الأرضية الذين وصل تعدادهم رغم الكوارث الطبيعية أو التي كان للإنسان اليد الطولى بحدوثها حوالي ٦ ستة مليارات إنسان . فالمعروف لدى العالم أجمع ان في هذا المكان مدفن النبي اليهودي حزقيال رديف النبي ذا الكفل (ع) مثل ثلاثة أنبياء آخرين منهم يعقوب يقال له إسرائيل وذو النون ليونس وطه لمحمد عليهم أفضل الصلوات والسلام وقد ورد اسم ذي الكفل في التوراة باسم حزقيال ، الذي كان قد جلب إلى بابل أثناء السبي البابلي مع ثلاثة من أهم أنبياء اليهود وهم دانيال واشعيا وارميا أثناء فترة حكم الملك البابلي نبوخذنصر الثاني (٦٠٤-٥٦٢ ق م) وكان يعتبر من منظري الديانة اليهودية (للطائفة اليهودية مزارات مقدّسة يحج إليها اليهود ويعتبر مزار النبي حزقيال في ناحية الكفل في الحلة من أهمها ، بالإضافة إلى مزار النبي ناحوم في قرية القوش في الموصل ومزار عزرا الكاتب المعروف بالعزيز في القرنة ومزار يوشع الكاهن الأكبر في جانب الكرخ من ضواحي بغداد / مقبرة معروف الكرخي / الست زبيدة .

ويقول الباحث الاثاري فلاح الجبائي " أن الهيئة العامة للأثار والتراث باشرت ومن خلال هيئة تنقيبات موقع الكفل للتحري والتنقيب عن المواقع الأثرية فيها ومنها مسجد الكفل وقد جرى التحري والتنقيب فيه عام ٢٠٠٩ وستظهر نتائج التنقيبات الأولية حين الانتهاء من العمليات التنقيبية والتي تبين أن نظام العمارة في المساجد الإسلامية والاستفادة من جدران المواقع القديم استمرارا على النهج العظيم للإمام علي (ع) في التعامل بشفافية مع المواقع المقدّسة القديمة.

وأضاف الجبائي " أن مدينة الكفل تضم الكثير من المعالم الأثرية والتاريخية البارزة وقد شكّل البعض منها علامة دالة عليها منها المنذنة التي أزيل المسجد الملحق بها وطمست معالمه في فترات لاحقة وهناك مرقد النبي ذي الكفل (ع) والخانات خان السيف وخان قريش وخان التمر وخان الدبس والسوق التراثي بالإضافة إلى خان السيد نور الذي يقع على الجهة الثانية من النهر " ويعد مرقد النبي ذي الكفل تراثا روحيا دينيا مشتركا تقرّه وتجلّه أديان التوحيد الثلاثة فهو في القرآن الكريم ذو الكفل بقوله تعالى (بسم الله الرحمن الرحيم ، وإسماعيل وإدريس وذو الكفل كل من الصابرين وأدخلناهم في رحمتنا أنهم من الصالحين) (الأنبياء ، ٨٥)

أما سيرته في اليهودية حيث يعتقد الكثير من الباحثين والمؤرخين ان ذي الكفل هو نفسه حزقيال بالعبرية لدى اليهود ويعد حزقيال نبيا لدى اليهود أيضا ، وقد ورد ذكره في سفر (نبوة حزقيال) في العهد القديم ، ويذكر أن له قبرا في منطقة تسمى بالكفل بين الحلة (بابل) والنجف كان يزوره اليهود والمسلمون في المنطقة حيث يعتقد اليهود ان هذا القبر هو قبر النبي حزقيال ، والمسلمون يعتقدون ان هذا القبر هو قبر النبي ذو الكفل ، وانه أحد أسباب الاعتقاد بأن النبي

حزقيال هو نفسه ذو الكفل ، ويتكوّن من بيت الصلاة وبيت الصحابة والقبة المخروطية المزدوجة

وأما بخصوص المنذنة فيقول الجبائي "تعد منذنة الكفل والأبنية الملحقة بها من المعالم التاريخية البارزة على مستوى القطر ، فعمارتها وزخارفها تشكل حقبة مهمة من تاريخ العمارة العراقية ، بنيت والمسجد الملحق بها في الفترة الأيلخانية ٥٧١٦ - ١٣١٦ م ، ولابد من الإشارة إلى أن هذه المنذنة هي الجزء المتبقي الوحيد من المسجد لذا يطلق عليها اسم المنذنة اليتيمة ، تتكون المنذنة من خمسة أجزاء هي : القاعدة ، البدن ، الشرفة ، الرقبة ، الشمعة" ، بنيت هذه المأذنة بالجص والطبوق وتتميز بضخامتها وعلوها الشاهق نسبياً وجمال تركيب صفوف المقرصنات التي تسند حوضها ، وروعة التشكيلات الزخرفية التي تغطي كامل بدنها وتنوع وحداتها وتقنياتها حيث يجلس بدن المأذنة الاسطواني الشكل على قاعدة مربعة ضخمة وممتينة جدا ترتفع عن مستوى سطح الارض حوالي ستة امتار ، ولم تزين وجوه جدرانها بتحلييات او نقشات زخرفية والظاهر ان جدار الجامع كان يتصل بها من جهتين حيث تحتل المأذنة احد اركانها من الداخل والبدن غليظ نسبياً يبلغ محيطه عشرة امتار ويخترقه سلم حلزوني واحد يقع مدخله المعقود عند سطح القاعدة وينتهي في حوض المأذنة ورقبة المأذنة غليظة إذ ماقورنت مع رقاب المأذن في بغداد ويبلغ محيط الرقبة ٧.٣٥ متر ويتوجها رأس مصلع نصف كروي مدبب الرأس وترتفع المأذنة بحوالي ٢٤ متر عن مستوى سطح الارض ان التكوين العماري لهذه المأذنة يشبه الى حد ما المأذنة الحدباء في الموصل ومن ابرز العناصر المعمارية في مأذنة الكفل المقرصنات التي تسند حوضها الاوحد وتتصف بتعقيد تركيبها وتناسقها وكونها مشغولة بحشوات من زخارف نباتية آجريه مفرغه كما تتألف مقرنصات هذه المأذنة من اربعة صفوف جاء الصف الاول من حنايا ذات عقود تبرز عدد منها الى الامام بالتبادل مع اخرى ذات عقود غير بارزة وهذه الحنايا اوسع من الحنايا ذات العقود البارزة ويشكل امتداد الحنايا الواسعة تجويفه لمقرنصات الصف الثاني كل تجويفه حنيتان متجاورتان تبرز رؤوس عقديهما الى الامام ويفصل بين كل وحدة من هاتين الحنيتين شريط بارز يستند على راس عقد الحنية في الصف الاول اما مقرنصات الصف الثالث فتشبه في تكوينها مقرنصات الصف الاول من حيث عدد الحنايا الضيقة في الصفيين فهي واحدة في الصف الاول واثنان في الصف الثالث حيث يكون راس عقد كا منهما مسنداً لطرف من طرفي الحنيتان التي تعلوها في الصف الرابع والتي تجاوز حنية اعرض منها تضم في داخلها حنيتين متجاورتين اي ان عقد هذه الحنية مزدوجة فيما يدعى السوق التراثي او سوق دانيال وقد بني من قبل شخص ميسور الحال يدعى صالح دانيال في نهاية العهد العثماني وبداية الاحتلال الانكليزي .
وأما الخانات فهي خانات السيف وقريش في الجزء الشرقي وخانات الدبس والتمر في الجزء الغربي من الموقع ، وقد قامت الهيئة العامة للآثار والتراث بمواسم عديدة في هذه الخانات .

وأضاف الباحث الاثاري الجبائي " أن هناك عوامل مؤثرة على المباني الأثرية وحسب الظروف المحيطة بها منها المناخ والبيئة والتضاريس والمؤثرات الجوية فالشمس ومالها من تأثير سلبي على جدران المباني وانجماد المياه داخل الشقوق الموجودة في المباني مما يساهم في توسيع الشقوق ، والنباتات وذلك لامتداد جذورها الى داخل الشقوق والفجوات في أساس البناء مما يؤدي الى توسيعها وينتج عن ذلك تفتيت المباني وإضعاف قوة تحمل التربة ، بالإضافة الى الحيوانات كالجرذان والفئران وطائر الليل (الخفاش) والديدان والطيور وغيرها تساعد على حدوث تأثيرات على المباني ، " مشيراً " الى تأثير الإنسان وذلك بإساءته لاستخدام المباني التاريخية والتجاوزات وإحداث التغييرات على المبنى وسرقة مواده البنائية مثلما حصل بمدينة بابل قديماً . وكذلك التجاوز الحاصل على مناطق الكفل الأثرية مثل بناء محلات بمادة السمنت المسلح الملاصق لخان التمر في مثل هذه الحالة حدثت على سوق دانيال ، والحروب وماجرى من قصف ثقيل على المنطقة المجاورة للموقع الأثري والذي استمر لعدة أيام"

ويضيف الجباوي " ان ماجرى من أحداث خلال ثورة العشرين من القرن الماضي والتي بدأت شرارتها من هذه المنطقة وهذا ما نلاحظه من اثر الاطلاقات النارية من الطائرات البريطانية على قمة المنذنة . والتطور السكاني وتأثيره في استخدام الأهالي في بيوتهم المجاورة للموقع لأحواض خزن المياه الثقيلة وتسربها إلى الموقع الأثري يعد سببا لتلف المواد البنائية للأثر ، وكذلك الرطوبة وتأثيرها الكبير على المواقع الأثرية" .

وإما مسجد النخيلة فقد أكد الجباوي أنه مسجد فريد يسمى ((مشهد الشمس)) ذو قمة مخروطية الشكل بطراز سلجوقي ، ويقال بأن موقع المسجد هو نفسه حيث كان البابليون قبل آلاف السنين يقيمون طقوسهم الدينية لعبادة الشمس واسترضائها . وهناك أسطورة تقول بأن الخليفة الرابع الإمام علي بن ابي طالب عليه السلام قد فاتته الصلاة خلال مروره بهذه المنطقة وان الله سبحانه وتعالى أعاد له الشمس ليؤدي واجبه الديني .

والى يومنا هذا هناك آلاف الناس يزورون المسجد وبضمنهم الرحالة والسواح من البلدان الآسيوية المجاورة ، وان اسم المسجد ترجم للغة الانكليزية ليعني بالضبط (رؤية الشمس) .